

جدلية العلاقة بين النهضة ومشكلة الأفكار في العالم الإسلامي في فكر مالك بن نبي

The Dialectic of the Relationship Between Renaissance and the Problem of Ideas in the Islamic World in the Thought of Malek Bennabi

أحسن برامة¹

barama.ahcene@yahoo.fr

<https://orcid.org/0009-0000-7937-095X>

تاريخ النشر: 2026/03/15

Received: 15/05/2025

تاريخ الاستلام: 2025/05/15

published: 15/03/2026

ملخص المقال :

يسلط هذا المقال الضوء على إحدى الحلقات المحورية في منظومة الفكر الحضاري عند مالك بن نبي، الذي انتبه في وقت مبكر إلى ارتباط مشكلة النهضة والحضارة في العالم الإسلامي بعالم الأفكار، "الأفكار الميتة" و "الأفكار المميّنة"، ولذلك اجتهد في تسليط الضوء على جدلية هذه العلاقة كأرضية أساسية للإقلاع الحضاري المنشود.

يركز المقال على تحليل هذا البعد الفكري من خلال تتبع كميّات تشكّل الأفكار، وسُبل تحولها من عناصر ثقافية ساكنة إلى أدوات للتغيير الفعّال. كما يستعرض الكيفية التي ربط بها بن نبي بين تحديد الأفكار وبين مشروع النهضة الشاملة، باعتبار أن الفكرة هي العنصر المحوري في تكوين الإنسان الفعّال، ومن ثم في بناء الحضارة.

كلمات مفتاحية: عالم الأفكار، الأفكار الميتة، الأفكار المميّنة، انتقام الأفكار.

Abstract:

This article sheds light on one of the central aspects of Malek Bennabi's civilizational thought. He was among the first to recognize the link between the crisis of revival and civilization in the Islamic world and the realm of ideas "dead ideas" and "lethal ideas." As such, he worked to highlight the dialectical nature of this relationship as a fundamental basis for the desired civilizational renaissance.

The article focuses on analyzing this intellectual dimension by tracing the processes through which ideas are formed, and how they evolve from static cultural elements into effective tools for change.

Keywords: Realm of ideas; Dead ideas; Lethal ideas; Revenge of Idea.

مقدمة:

تشكّل العلاقة الجدلية بين النهضة ومشكلة الأفكار إحدى الركائز المعرفية المحورية في المشروع الحضاري للفكر الإسلامي عند المفكر الجزائري مالك بن نبي. فقد أولى هذا الأخير اهتماماً بالغاً بتحليل آليات النهوض والتراجع في المجتمعات الإسلامية، من خلال مقارنة فكرية ترى أن النهضة ليست مجرد تحوّل مادي أو سياسي، بل هي عملية شاملة ترتبط ارتباطاً عضوياً بعالم الأفكار الذي يُمثّل، في نظره، البنية التحتية الأساسية لأي تحوّل حضاري فعال.

لقد أدرك بن نبي أن إخفاق العالم الإسلامي في استعادة موقعه الحضاري يعود إلى خلل عميق في المنظومة الفكرية والثقافية، يتمثل في سيادة ما يسميه بـ"الأفكار الميتة" و"الأفكار المميّنة"، وهي أفكار فقدت صلاحيتها أو أصبحت تعيق التقدّم، مقابل غياب "الأفكار الحية" التي تشكّل الدينامية الضرورية للإبداع والتغيير.

من هذا المنطلق، تنطلق إشكالية هذا البحث من فرضية أساسية مفادها أن أزمة النهضة في العالم الإسلامي هي في جوهرها أزمة أفكار، وأنه كلما كانت الأفكار السائدة إيجابية، منتجة، وفعّالة، كلما اقترب المجتمع من تحقيق نهضته المنشودة. أما في حال غيابها أو تعطلها، فإن مشاريع النهضة تظل عرضة للفشل أو التراجع.

وتكمن أهمية هذا البحث في سعيه إلى تفكيك وتحليل البنية الفكرية التي توجه مسار النهضة، من خلال العودة إلى كتابات مالك بن نبي ومحاولة استجلاء تصوراتهِ حول العلاقة التفاعلية بين الفكر والحضارة، وبين الإنسان والفكرة، واستشراف سبل تحديد الأفكار بما يخدم بناء نهضة فكرية وأخلاقية شاملة.

قيمة وأهمية الأفكار في تحقيق النهضة

يركّز مالك بن نبي، في سياق حديثه عن شروط النهضة ومعوقاتها على ضرورة تجاوز الأعراض السطحية للأزمة الحضارية في العالم الإسلامي، والدخول إلى عمق الإشكال الفكري والثقافي الذي عطّل فاعلية المجتمعات الإسلامية وأخرجها من دائرة التاريخ. ومن هذا المنطلق، يبرز دور "الأفكار" بوصفها المحرّك الأول لأي عملية تغيير حضاري، حيث تشكّل نقطة الانطلاق نحو استعادة الوعي وبناء مشروع نهضوي أصيل. وفي مقابل ذلك، ينتقد بن نبي اعتماد المجتمعات الإسلامية على حلول جزئية ومؤقتة، لم تكن كافية لتقديم مسار حضاري حقيقي، بل أسهمت، في نظره، في ترسيخ حالة "السلبية النسبية" وانعدام الفاعلية التاريخية.

وانطلاقاً من هذه الرؤية، يمكن تناول هذه الإشكالية من خلال محورين متكاملين:

أولاً: قيمة الأفكار في تحقيق النهضة،

وثانياً: أهمية تجاوز الحلول الجزئية نحو مشروع حضاري شامل.

1.2 قيمة الأفكار في تحقيق النهضة:

إن الدارس لأفكار وجهود مالك بن نبي الفكرية يجدها مترابطة الحلقات ينتقل من فكرة لأخرى ومن قضية لأخرى في مسار منهجي حازم ودقيق. فعالم الأفكار عنده يشكل أحد الحلقات المعرفية الأساسية للمشكلة لآرائه: عالم الأشياء، عالم الأشخاص، عالم الأفكار. إن عالم الأفكار ليس مجرد مفاهيم مجردة وإنما هو منبع يمنح الطاقة والحيوية والحركة، فكل حضارة تبدأ بفكرة وكل اختيار وجمود يحدث

بسبب فقدان الفكرة الدافعة. وأيضاً فإنّ عالم الأفكار هو الصانع والموجّه لأفكار واتجاه وحركة المجتمع في مسيرته الحضارية. ويبيّن (بوكروح، 2016، الصفحات 149-150) الفرق بين مفهوم الحضارة عند أرنولد توينبي وعند مالك بن نبي، فيقول: "الحضارة عند توينبي تعني: مستوى معين من الإنجاز الاجتماعي والمعنوي ولكنها عند مالك بن نبي تعني إمكانية أداء وظيفة إنّه مجموع الشروط المعنوية والمادية التي تسمح لمجتمع ما بأن يمنح لكل فرد من أفراده مساعدة كافية... إن الحضارة بناء أو هندسة أو مجموعة متناسقة من الأشياء ومن المفاهيم بما بينها من روابط وبالمواقع التي تشغلها. إن مثل هذا المجموع لا يمكن أن يتصور كترام بسيط لكن كفكرة محققة أو كمثل أعلى.. لا وجود لثقافة بدون أفكار ولا وجود لتاريخ بدون حضارة لم تكن في فجر التاريخ إلا ثلاثة عناصر أساسية هي: الإنسان والتراب والزمن وهي عناصر غائصة في لغز ميتافيزيقي ويمكن أن تبقى هذه العناصر كما هي طيلة آلاف السنين دون أن تتحول إلى عوامل نفسية وتاريخية مولّدة للحضارة.

إن الإنسان والتراب والزمن عناصر لا تشتغل بطريقة فوضوية بل في عملية ترتيبية تؤدي إلى تحقيق إرادة وإمكانية في تلك العناصر التي يجب أن تقوّل في تركيب بيوتاريخي غير آلي لكنه نتيجة لتمازج توجده قوة فكرية مصدرها ديني أو سياسي» يعتبر مالك بن نبي أن الكلمة، مع ما تحمله من قوة روحية، تُعدّ عنصراً رئيسياً في تشكيل الوعي الفردي والجماعي. فهي تسهم في إنشاء الظواهر الاجتماعية وتحفيز الإرادة نحو التغيير. ويستشهد هنا بتجربة جمال الدين الأفغاني، الذي أثرت كلماته بشكل عميق في الجماهير، حيث كانت بمثابة بذور لفكرة النهضة. بالإضافة إلى ذلك، يشير إلى بعض المواقف الإصلاحية في الجزائر، مبيناً تأثيرها التاريخي. فقد جاء في كتاب شروط النهضة (بن نبي، 1987، الصفحات 24-27): «إن الكلمة لمن روح القدس، إنها تسهم إلى حد بعيد في خلق الظاهرة الاجتماعية، فهي ذات وقع في ضمير الفرد شديد، إذ تدخل إلى سويداء قلبه فتستقر معانيها فيه لتحوّله إلى إنسان ذي مبدأ ورسالة. وهكذا كانت كلمة جمال الدين الأفغاني فقد شقت كالمحراث في الجموع النائمة طريقها فأحييت مواتها، ثم ألفت وراءها بذور لفكرة بسيطة: فكرة النهوض...»

وإنه لمن الواجب علينا أن ننوه ببعض ما كان من أمر مناجاة الشيخ صالح بن مهنا الضميرية الفردية إن صح التعبير فإن صوت مناجاته كاد يوقظ سكان قسنطينة كلها سنة 1898. إذ أنه قام قومة مباركة ضد الخرافين (الدراويش) غير أن الحكومة الساهرة على الهدوء عملت على إبعاده وعاقبته بمصادرة مكتبته الثمينة وقرت أمثاله من مقلقي النوم العام في نظر الاستعمار، فحولت الشيخ عبد القادر المجاوي من منصبه بمدرسة قسنطينة إلى مدرسة العاصمة...

لقد انطلقت الأفكار ثم تلاقت وتصارعت فكانت أحيانا تنفجر وأحيانا تتحول مباشرة من حالة الجمود إلى حالة التبخر في صورة مدرسة أو مسجد أو مؤسسة إصلاحية وظهرت النظريات الاجتماعية التي كانت يومئذ رائجة في سوق الأفكار، ظهرت هذه النظريات في أفكار الشباب المتطلعين إلى كل تجديد، فهذا يرنو إلى المذهب الكمالي، وذلك يأخذ بالمذهب الوهابي وذلك ينزع إلى التمدن الغربي، ومنهم من انحدر بفكره إلى المادة..

لقد كانت حركة الإصلاح التي قام بها العلماء الجزائريون أقرب هذه الحركات إلى النفوس وأدخلها في القلوب". وبذلك فإنّ بن نبي يُبرز كيف بدأت الأفكار الإصلاحية تشق طريقها وتتشابك بين الجمود والانفجار، محدثة تحولات ملموسة في الواقع الثقافي والديني من خلال مؤسسات مثل المساجد والمدارس. كما يشير إلى تنوع التيارات الفكرية بين الشباب الجزائري، بين من انجذب للكمالية أو الوهابية أو التوجهات الغربية، وبين تيار إصلاحي متجذر قاده العلماء، وكان الأقدّر على ملامسة وجدان الشعب، وفي هذا الإطار يؤكد بن موسى على إلحاح مالك بن نبي أنّ النهضة الحضارية تنبني على تحديد القيم والمرتكزات الروحية والثقافية، وأهمية فهم السياقات

التاريخية والنفسية المرتبطة بها (Benmoussa, 2023).

2.2 أهمية تجاوز الحلول الجزئية نحو مشروع حضاري شامل:

ينتقد مالك بن نبي بشدة الاعتماد على العلاجات السطحية والجزئية في مواجهة أزمات الأمة الإسلامية. فهو يعتبر أن هذه الحلول، وإن بدت ضرورية في بعض السياقات، فإنها لا تلامس جوهر الأزمة، بل تؤدي إلى تخديرها، واستمرارها في أشكال جديدة.

إن العالم الإسلامي الذي فقد حركة الدفع بعد إنسان ما بعد الموحدين وحمل جميع الجرائم الحضارية والتي لا تزال مستمرة إلى اليوم يحتاج إلى استفاقة عميقة، جذرية حقيقية، عوض العلاجات الجزئية، التي لم تستطع تحقيق وبناء استفاقة ونهضة حقيقية يقول مالك بن نبي ضمن هذا الإطار (بن نبي، 1987، الصفحات 44-48): «لقد ظل العالم الإسلامي خارج التاريخ دهرًا طويلاً كأن لم يكن له هدف، استسلم للمرض، وفقد شعوره بالألم حتى كأنه يؤلف جزءاً من كيان... فالعالم الإسلامي يتعاطى هنا (حبة) ضد الجهل ويأخذ هناك (قرصاً) ضد الاستعمار وفي مكان آخر يتناول (عقاراً) كي يشفى من الفقر... ومع ذلك لن نجد حضارة...».

ويكشف هذا التصوير عن أحد أبرز مفاهيمه، وهو "السلبية النسبية"، التي تعني غياب الفاعلية في التفاعل مع المشكلات البنيوية، حيث تظل محاولات الإصلاح سطحية ومجزأة، ولا تمس جوهر الخلل الحضاري. وبالتالي، فإن العالم الإسلامي، في رأيه، بحاجة إلى مشروع نهضوي شامل، يستأنف الحضارة من جذورها، لا عبر تقليد الآخرين، بل من خلال استعادة القابلية الذاتية للإبداع والفعل التاريخي. فهو يؤكد أن المقياس العام في عملية الحضارة هو أن الحضارة هي التي تلد منتجاتها وسيكون من السخف أن تعكس هذه القاعدة، وإن الحضارة ليست عملية تكديس وإنما هي عملية بناء نهضوي يقوم على تحريك الإنسان وتحريك التاريخ (بن نبي، 1987).

يقول (بوكروح، 2016، صفحة 52): «النهضة في نظر مالك بن نبي لن تأتي من الخطب الدينية أو من الخطب المطالبة بالحقوق لكنها تأتي من التحول الذهني، ومن التغيير الجذري للعقليات... لكن رجال السياسة في زمانه لم يكونوا يدركون عمق المشكلة، وكانوا يعتقدون إمكانية معالجتها بمجرد تقليد الغرب في المجال التقني أي في مجال الأشياء».

إن التخطيط والوصول للحضارة يتحقق من خلال نهضة حقيقية فعلية جذرية شاملة لا تلغي عنصراً من عناصره الأساسية وهي: الإنسان-التراب-الزمن.

لقد ثمن مالك بن نبي آراء عبد الرحمن بن خلدون، لا سيما في تحليله لحركة التاريخ وتفسيره لها من خلال سنن وقوانين اجتماعية، تجعل من التبدل التاريخي عملية خاضعة لعوامل موضوعية يمكن دراستها وفهمها. ويُعتبر ابن خلدون، في هذا السياق، من أوائل من وضعوا إطاراً نظرياً لما يشبه "قانون الدورة التاريخية"، من خلال تحليله لنشوء الدولة ونموها ثم أفولها، ضمن أطوار ثلاثة: البدو، التعصب، ثم الترف والانهيار (ابن خلدون، 1984).

إلا أن مالك بن نبي يرى أن فكر ابن خلدون، رغم عمقه، توقف عند حدود الدولة ولم يرتقِ إلى تحليل أشمل لمفهوم "الحضارة" بوصفها كياناً مركباً يتجاوز الدولة ليشمل الإنسان والتراب والوقت، وفقاً لما يسميه هو بـ "شبكة الحضارة" (بن نبي، 1987). وهذا ما يؤكد أيضاً (ضو و دراجي، 2023، صفحة 197). وبهذا، ينتقد بن نبي اقتصار ابن خلدون على دورة الدولة دون الولوج إلى السنن التي تحكم نشأة الحضارات وسقوطها، والتي تحتاج إلى مقارنة تتجاوز البُعد السياسي إلى البعد الحضاري الشامل.

ويزداد هذا التباين وضوحاً عند مقارنة منطلقات الحركة التاريخية في الفكر الفلسفي. فبينما تركز الفلسفة الماركسية على العامل المادي والاقتصادي بوصفه المحرك الأساسي للتاريخ (Marx & Engels, 1846)، يقترح أرنولد توينبي أن التحدي البيئي أو الاجتماعي هو ما يدفع المجتمعات إلى التطور، وذلك عبر ما سماه "الاستجابة للتحدي". (Toynbee, 1934-1961) أما بن نبي، فذهب إلى أن

الفكرة الدافعة هي المحرك الحقيقي، أي مدى استعداد المجتمع للانقياد أو النهضة، ما يعكس رؤيته لمعادلة النهضة: (الإنسان + التراب + الوقت) + الفكرة الدافعة.

لقد التفت مالك بن نبي إلى أهمية وقوة الفكرة الدينية في بناء الحضارة وتحقيق النهضة واتخذ من الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [سورة الرعد: الآية 11] ومن خلال تتبع مسار الفكرة الدينية في تحريك المجتمع وللتاريخ المسلمين قام بتقسيمه إلى ثلاث مراحل: مرحلة الروح، مرحلة العقل، مرحلة الغزيرة.

إن قوة الفكرة الدينية هي من تمنح للمجتمع الفاعلية والحيوية وحينما تأخذ هذه الفكرة فستكون عاجزة عن تحريكه وتكون نهاية (دورة) وهجرة (الحضارة) إلى بقعة أخرى (برامة، 2018، الصفحات 233-234). وفي هذا الإطار يتحدث أحد تلامذة مالك بن نبي (عبادة، د.ت.، الصفحات 89-90)، مؤكداً إيمان مالك بن نبي "بأنّ العقيدة الدينية هي التي تلعب دور المركب، وأنها كما أقامت في الماضي كاتدرائيات، فهي التي تتولى اليوم بناء المصانع والسدود في الاتحاد السوفياتي. فالفكرة الدينية تدخل إما بطريقة مباشرة وإما بواسطة بديلاتها اللادينية نفسها".

وبعد أن قرر مالك بن نبي بنظرة فاحصة استلهمت التاريخ والفلسفة أهمية وقيمة الفكرة الدينية خصوصاً في بناء الحضارة وتحقيق النهضة وتحريك التاريخ. لفت انتباهه أن هذه الفكرة لا تعيش في فراغ وإنما في محيط صراع فكري أشد عنفاً بحكم المضامين المعرفية لكل فكرة وبحكم قدرة هذه الفكرة على التعاطي مع الواقع وتحريكه بموضوعية وفعالية وإيجابية ثم بحكم المسار التاريخي لكل فكرة من الأفكار وقدرتها على تجديد نفسها.... وهذه الجوانب الدقيقة شكلت حيزاً مهماً في فكر مالك بن نبي وهي التي سببت له تلك الخلافات مع عدد من رجال الحركة الوطنية والحركة الإصلاحية على سواء. كما يتحدث هو عن ذلك في مؤلفاته.

نظرية الأفكار والصراع الفكري في فكر مالك بن نبي

يمثل الفكر عند مالك بن نبي ركيزة مركزية في تشخيص أزمة العالم الإسلامي وفي رسم معالم مشروعه الحضاري. فقد أدرك مبكراً أن التخلف الذي تعانيه المجتمعات الإسلامية ليس ناتجاً عن قصور مادي أو تقني فحسب، بل هو في جوهره أزمة أفكار، تتعلق بغياب الوعي التاريخي، وانعدام الفاعلية الفكرية، وانحسار القدرة على إنتاج المعنى والتوجيه. ولهذا فإن أي مشروع نهضوي، في نظره، لا يمكن أن يتحقق من دون إصلاح المنظومة الفكرية وتجديد العلاقة بين الإنسان والفكرة. وفي هذا الإطار، تتبلور رؤيته من خلال بعدين مترابطين: أولهما، نظرية الأفكار بوصفها المحرك الحقيقي للتاريخ وأساس كل نهضة، وثانيهما، مفهوم الصراع الفكري باعتباره آلية تستعملها القوى المهيمنة لإجهاض أي وعي حضاري ناشئ وتشثيت الجهود الإصلاحية. إن فهم هذين البعدين يُعد مدخلاً ضرورياً لفهم مشروع مالك بن نبي الفكري، ولتفسير إخفاقات الأمة في التحول إلى فاعل حضاري مستقل.

1.3 نظرية الأفكار في فكر مالك بن نبي:

إن المتأمل في كتابات وآراء مالك بن نبي يلحظ تأكيداً أن حركة المجتمع هي حركة أفكاره لكنها المسؤولة في بناء وصياغة مفاهيمه للكون والحياة والإنسان ويعتبرها محددات نفسية للسلوكات الفردية وموجهات روحية أخلاقية.

«لم يكن مالك بن نبي مدفوعاً لإضافة نظرية جديدة لعالم الأفكار عندما انكبّ على دراسة مشكلة الأفكار في المجتمع الإسلامي، بل كانت تحدوه اعتبارات إجرائية وضرورة بيداغوجية، تهدف إلى إيقاظ المسلمين، وقد لعب مفكرنا دور المعالج النفسي لحضارة في ضور الانحطاط. فراح يعيد ربط الصلة بين المريض ووضعه النفسي، وبين وعيه ولا وعيه، فبمعرفة أفكار وطن ما أو حضارة ما، يمكن تفسير أحوالهما وفهم انجازاتها.... لينخلص إلى أن العلاقة بين الأفكار والنشاط تكتسي ثلاثة وجوه: الوجه الأخلاقي بالنظر إلى عالم الأشخاص، والوجه المنطقي بالنظر إلى عالم الأفكار والوجه التقني بالنظر إلى عالم الأشياء (بوكروخ، 2016، الصفحات 184-197).

ويرى من جهته عمر بن عيسى في دراسته عن فكر مالك بن نبي «أن الفكرة باعتبارها المبدأ للحركة والحياة يميزها عن الوثن الذي هو المؤشر للخمول والموت إنما تمارس طاقتها الخفية في الضمائر والتي هي الروح في بنية المجتمع غير أن الأفكار التي تلهم الرجال ليست دائما صحيحة أصيلة، ففسادها لا يحول بينها وبين الفاعلية في الإرادة التي تنشئ الحضارات، فالأفكار تعيش كالرجال بيد أن فسادها حين يحقق حضوره بصورة نهائية فإنها تسقط في امتحان التاريخ وتموت تلقائياً وتصبح في مستودع الأفكار الميتة وبن نبي يرى أن الأسرة الموحدة المحاولة الأخيرة لرأب الصدع في المجتمع الإسلامي لذا كان انهيار الموحدين السياسي هو اللحظة التاريخية والنفسية التي طرح فيها المسلمون من المسرح الذي يصنع التاريخ... فإنسان ما بعد الموحدين غدا إنسانا قاصرا عن الإبداع نفسيا متمردا على الأفكار الخلاقة، من هنا قاده ضعفه إلى حالة القابلية للاستعمار» (بن عيسى، 2007، الصفحات 35-39).

2.3 الصراع الفكري وأثره في تقويض مشروع النهضة:

إن إدراك مالك بن نبي لمدى وحجم الصعوبة والتعقيد في تصفية الأفكار الميتة من الساحة الفكرية للعالم الإسلامي والذي كان يعتبره أساسيا لأي عمل نهضوي لبناء الحضارة «ويبدو أن مالك بن نبي هو أول من وضع عبارة "الصراع الفكري" "lutte idéologique"، كما أنه أزاح الستار عن الدور الذي لعبه الصراع الإيديولوجي في الحرب الباردة ومن أجل الإبقاء على الاستعمار في البلدان العربية الإسلامية بحيث يمكن اعتبار كتاب "الصراع الفكري في البلدان المستعمرة" أسبقية في تسليط الضوء على أهم معيقات النهضة؛ ونظرا لكون مالك بن نبي في بؤرة هذا الصراع بحيث صار يأخذه بعين الاعتبار في كل شؤونه، ذلك أن المعركة الخفية التي خاضها ضد الاستعمار وماسنيون 1931 و 1956 قد شحذت نوازع الحيلة والحذر عنده.. كان لويس ماسنيون خلال القرن الماضي أحد أقطاب الصراع الفكري في بلاد المشرق العربي الذي انتبه في وقت مبكر لمالك بن نبي عندما كان طالبا في باريس فوضع في طريقه كل الصعوبات الممكنة (بوكروخ، 2016، الصفحات 133-139).

إن الصراع الفكري لا يقل خطورة عن الصراع العسكري بل قد يكون الأعنف والأشرس لأنه يتجاوز حدود الزمان والمكان. يقول مالك بن نبي «لقد بدأ الصراع يأخذ طابعه في البلاد المستعمرة منذ اللحظات الأولى التي بدأ فيها العالم الإسلامي يستيقظ سنة 1900.. من خلال جهود شيخين وقورين: «هما الشيخ بن مهنّا والشيخ عبد القادر المجاوي بوصفهما أول بطلين في الصراع الذي بدأ ضد المرابطين والخرافات.. كما انتبه مالك بن نبي إلى خطورة مرصّد الاستعمار الإنجليزي في مراقبة الجبهة الوطنية التي تكونت في الهند المعادية للاستعمار (بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، 1988، الصفحات 14-103).

إن نظرية الأفكار وحلبة الصراع الفكري في العالم الإسلامي من أعنف حلّبات الصراع التي تفاقمت نتيجة عوامل تاريخية. بعضها متعلق بالتراث والبعض الآخر متعلق بالاستعمار ليتعقد الصراع الفكري في العالم الإسلامي الذي ينشد الحرية والنهضة والحضارة.

تصنيف الأفكار عند مالك بن نبي

عالم الأفكار في تأثيراته النفسية والحضارية عالم أساسي محوري في فكر مالك بن نبي حيث وقف يرصد تأثيراتها المختلفة بين إيجابية فاعلة وسلبية تدفع المجتمع نحو الحركة والنهضة أو إلى الجمود والتراجع والموت وقد رصد مالك بن نبي في تصنيفه للأفكار عدة أصناف وهي:

أ- الأفكار الميتة: وهي أفكار نتاج ارثنا الاجتماعي تولد قابلية الاستعمار.

ب- الأفكار المميّنة: مستعارة من الغرب تولد الاستعمار (بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، 1992، صفحة 146).

ج- الأفكار المطبوعة: الصور الأولية والنماذج الكلية والأفكار المعبر عنها: «لقد عاش المجتمع الإسلامي اللحظة المجيدة عند ولادته، لحظة أرخيدس لأفكار المطبوعة في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم أو الخلفاء (بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، 1992، صفحة 70).

د- الأفكار الموضوعية: الأفكار المعبر عنها وعندما تمحى النماذج الكلية تُفْتَقَدُ غُتَّةُ الذات في خضم الجوق. والأفكار المعبر عنها تسكت بدورها، فلم يبق لها شيء تعبر عنه وهي لم تعد تستطيع أن تعبر عن أي شيء والمجتمع الذي يصل إلى هذه الحالة يتفتت (...).

وهذا هو زمن الأفكار الميتة (بوكروخ، 2016، صفحة 189).

هـ- الأفكار الأصيلة والأفكار الفعّالة: وهي الأفكار المحركة للتاريخ.. والأفكار الأصيلة إذا كانت فاقدة لفعاليتها أي عاجزة عن إنتاج الآثار الإيجابية في حياة الناس، كما أنه يمكن ألا تكون أصيلة لكنها تقود إلى إنجازات عظيمة.

إن المردود الاجتماعي والثقافي للفكرة مرتبط بشروط غير الشروط التي تفقد بها فعاليتها. حيث إن الفكرة تكون حقيقية أو مزيفة على المستوى الديني والمنطقي والعلمي والاجتماعي، لكن مسيرتها التاريخية لن تبقى مرتبطة بميزتها الداخلية، بل ترتبط بديناميكية الفكرة وسلطانها في المحيط الثقافي (بوكروخ، 2016، الصفحات 205-206).

لقد بذل مالك بن نبي جهدا كبيرا في تسليط الضوء وتحليل كل صنف من أصناف الأفكار السابقة وبيان آثارها النفسية والأخلاقية والحضارية مؤكدا أن العالم الإسلامي لن يتمكن من المرور إلى مرحلة النهضة وبناء الحضارة دون جهد في تصفية الأفكار الميتة ورفض القيم المخرقة التي لم تعد قادرة على خلق الفاعلية لتعمل على خلق القابلية للاستعمار وكذلك رفض وتصفية الأفكار الميتة المستوردة من خارج بيئتها الحضارية والثقافية والاجتماعية لأن الإصرار على زرعها إهدار للمقدرات وللوقت والجهد لقد كان العالم الإسلامي عبر تاريخه أسير الأفكار الميتة والأمراض الداخلية المرتبطة بالتراث وبالأفكار الميتة المستوردة.. بغض النظر عن تأثيرات باقي أصناف الأفكار... وحالة المجتمع الإسلامي لحد اليوم ثمرة الإنسان ما بعد الموحدين الذي أورثنا مختلف الجرائم الحضارية.

لقد عايش المفكر الجزائري مالك بن نبي تجربة مريّة مع "الصراع الفكري"، وهو صراع لا يقتصر، في نظره، على مجرد تبادل آراء أو تنافس بين رؤى مختلفة، بل هو آلية استعمارية خفية تستهدف تفكيك البنية الفكرية للمجتمعات المستعمرة وإعادة تشكيلها بما يخدم مصالح المستعمر (بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، 1988). وقد تجسّد هذا الصراع في شخصيات مثل لويس ماسينيون (Louis Massignon)، المستشرق الفرنسي المعروف، الذي مثّل في نظر بن نبي العين الثقافية للاستعمار؛ حيث كان يشرف على مراقبة تطور الفكر الإسلامي عن كثب، ليس بغرض الفهم المحايد، وإنما لرسم خريطة نفسية للعالم الإسلامي تُستخدم لتوجيهه والسيطرة عليه.

في هذا السياق، يؤكد بن نبي أن حركة المجتمع هي في جوهرها حركة أفكاره؛ فالأفكار ليست مجرد عناصر نظرية، بل أدوات تحريك وتغيير. وبالتالي، فإن أي فكرة تفقد قدرتها على التأثير في الواقع، وعلى تحريك الإنسان وتوجيه سلوكه، تصبح فكرة معطلة، منفصلة عن سياقها التاريخي والاجتماعي، ولا يمكنها أن تؤدي إلى أي فعل حضاري (بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، 1988).

ومن هنا، يصنّف بن نبي المجتمعات إلى صنفين رئيسيين:

المجتمعات التاريخية: وهي تلك التي تمتلك القدرة على التفاعل مع "التحديات" التي تواجهها، منتجة باستمرار لأسباب وجودها ونهضتها. وقد تأثر بن نبي في هذا الطرح بنظرية المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي، الذي يرى أن الأمم لا تتقدم إلا حينما تستجيب بفعالية للتحديات البيئية أو الحضارية التي تواجهها (Toynbee، 1961-1934). أما الفيلسوف الألماني هيغل، فقد نظر إلى التاريخ كحركة جدلية تتطور عبر الصراع بين "الأطروحة" و"النقيض"، مما ينتج عنه "التركيب" الذي يمثل مرحلة جديدة من الوعي والتطور.

المجتمعات الراكدة: وهي التي تعيش خارج سياق التاريخ الفاعل، غير قادرة على توليد أسباب نهضتها. ويطلق عليها البعض وصف "البداية"، في إشارة إلى جمودها الفكري والاجتماعي، وتكرارها الميكانيكي لأنماط سلوكية وثقافية لا تساهم في بناء مشروع حضاري (بن نبي، ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية، 1986، الصفحات 17-50).

لقد أيقن مالك بن نبي أن المجتمع الإسلامي لم يكن تنقصه الوسائل ولكن تنقصه مرحلة نفسية تحقق شروط إقلاعه الحضاري، كتلك المرحلة النفسية التي أطلّ بها المجتمع المسيحي في أوروبا على الاقتباس من التراث الإسلامي عبر الأندلس.. ويتساءل مالك بن نبي الذي يحاول أن يعيد الثقة بالقيم الإسلامية من زاوية جديدة، زاوية الحاجة في عالم يعيش أزمة الحضارة الغربية، (الأفكار المميتة) ويتساءل كيف يتأتى للعالم الإسلامي أن يبحث عن إلهام فلسفته فيما وراء تقاليده العريقة؟ !

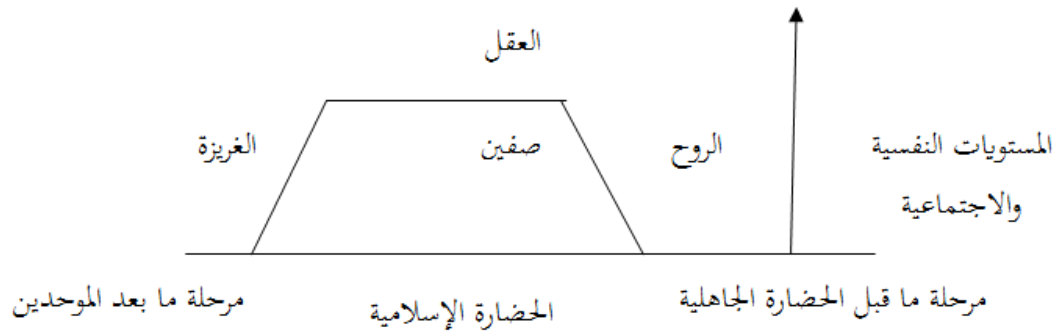
إن حديثنا عن إنسانية أوروبا لا يكون إلا حديثا عن نزعة إنسانية جذبية دون إشعاع وفي هذه الحالة تراها تعني "إنسانية أوروبية" في الداخل وإنسانية استعمارية في الخارج.

فقد انتقل الطالب المسلم إلى أوروبا منذ الاتصال الأول وهو يحمل في أعماقه مجموعة من الأفكار الميتة والتي كانت لزمن أفكارا قاتلة في جسم الحضارة الإسلامية وقد فتنت وحدة المجتمع وأخرجته من دوره الفاعل في شبكة العلاقات الاجتماعية (مسقاوي، 1979، الصفحات 19-29).

وعلى ضوء ما سبق يتبين مدى إيمان وقناعة مالك بن نبي الدينية والفلسفية والتاريخية بأن تحقيق نهضة العالم الإسلامي والإقلاع الحضاري تتوقف بالدرجة الأولى على الفكرة الدافعة-الدينية- القادرة على خلق الفاعلية والحركة "لحظة أرخميدس".

غير أن العالم الإسلامي الذي مر بثلاثة مراحل: مرحلة الروح، مرحلة العقل، مرحلة الغريزة. ثم مأساة إنسان ما بعد الموحدين، ثم مأساة التعرض للاستعمار بكل ما أفرزته من معاني الألم والصراع الفكري فإن نهضة العالم الإسلامي والمرور إلى الإقلاع الحضاري لن يمر إلا من خلال مراجعة وفحص وفرز عالم الأفكار بتصفية الأفكار الميتة وعزل الأفكار المميتة، وإعادة التركيز على الأفكار الأصيلة التي تصنع الإنسان القادر على بناء الحضارة.

نموذج مالك بن نبي لتطور المستويات النفسية والاجتماعية في المجتمعات الإسلامية



المصدر: (بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، 1992، صفحة 44).

لقد طوّر مالك بن نبي نموذجًا لفهم مسار تطور المجتمعات الإسلامية من منظور نفسي-اجتماعي- حضاري، يُجسّده الشكل أعلاه. هذا النموذج يُقسّم تطور المجتمعات عبر ثلاث مراحل أساسية: مرحلة ما قبل الحضارة (الجاهلية)، ومرحلة الحضارة (الإسلامية)، ومرحلة ما بعد الحضارة (ما بعد الموحدين). وقد اعتمد في تحليله على توازن القوى الثلاث التي تتشكل منها شخصية الإنسان، وهي: الروح، والعقل، والغريزة.

- **مرحلة ما قبل الحضارة - الجاهلية:** في هذه المرحلة، تسود الروح كقوة فاعلة لكنها منفصلة من الضبط العقلي، ما يجعل المجتمع يعيش في جو من الانفعالات والتقاليد اللاعقلانية، وهو لا يساهم في بناء حضارة متماسكة، بل ينتج أفرادًا يفتقدون للوعي التنظيمي والعمل المؤسسي.

- **مرحلة الحضارة الإسلامية:** تمثل ذروة التوازن في هذا النموذج، حيث يحدث تكامل بين الروح والعقل، في هذه المرحلة، تسيطر الفكرة الدينية على النفس، كما يرى بن نبي، فتهدب الغريزة، وتنمي العقل، وتوجه الروح نحو الفعل الحضاري المنتج. هذه المرحلة شهدت ولادة الحضارة الإسلامية بكل مظاهرها من علم، فن، سياسة، وعدالة اجتماعية. العقل هنا ليس مسيطرًا وحده، بل يعمل كآلية تنظيم موجهة بطاقة الروح ودوافع الغريزة المروضة.

- **مرحلة ما بعد الموحدين (الانحدار الحضاري):** بعد أفول الحضارة الإسلامية، بدأ الإنسان المسلم في فقدان توازنه الداخلي، حيث تراجعت الروح وتقلص العقل، في مقابل تصاعد نفوذ الغريزة، فالمجتمع في هذه المرحلة أصبح مستهلكًا غير منتج، خاضعًا لمؤثرات الخارج، ومتراجعًا فكريًا ونفسيًا. يشير بن نبي إلى أن هذه المرحلة تتسم بما يسميه "الانفصال بين الفكرة والواقع"، حيث لم تعد الأفكار قادرة على تحريك الإنسان أو تشكيل سلوكه الاجتماعي (بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، 1992).

هذا النموذج لا يُعبّر فقط عن تحليل تاريخي، بل هو أيضًا أداة تشخيص حضاري لفهم أزمة العالم الإسلامي المعاصر من الداخل، وتحديد مكان العطل في الشخصية الاجتماعية الإسلامية. إنه يُبرز ضرورة استعادة التوازن بين مكونات النفس الثلاثة، كشرط أساس لأي مشروع نهضوي فعال.

إنتقام الأفكار المخدولة عند مالك بن نبي

انتقام الأفكار أحد المصطلحات المفاهيمية لمالك بن نبي التي حاول لفت الانظار والأفكار إلى تأثيراتها وخطورتها حيث كتب يقول:
الفكرة الميتة: هي الفكرة التي خذلت الأصول فكرة انخرقت عن مثلها الأعلى...

الفكرة المميته: هي الفكرة التي فقدت هويتها وقيمتها الثقافية بعدما فقدت جذورها.. وفي هذه وفي تلك خيانة أفكار تجعلها سلبية أو ضارة.. إن ما أضافه التاريخ على حكمة سقراط: هو أن الأفكار المقتولة، الأفكار المخدولة تنتقم انتقاما مخيفا، بيد أن تاريخ البشرية الموغل في القدم يضعنا أمام نوع آخر من الأمراض يصيب المؤسسات والتنظيمات وحياة المجتمع، وهذه العدوى تنتقل من جيل إلى آخر..

وعندما نضع حساب ميزان القصور والفعالية في مجتمع، فإننا نضع بصورة أساسية حساب ميزان النتائج الإيجابية لعالم الأفكار فيه في حالته الراهنة.

ونحن نعلم من ناحية أخرى بأن خيانة الأفكار المندمجة في السلوك وابتعاد الأفكار المتداولة عن الأفكار الأساسية، هما الأدوات اللتان نفيس بهما انعدام فعالية مجتمع التي تسلت من جيل إلى جيل، فالمحاكاة في السلوك تجد طريقها عبر الأفكار، وفي هذا الإطار يمكن الاستنتاج أن الأفكار التي تصبح غير قادرة على التفاعل مع الواقع، أو التي تفقد حيويتها، قد تتحول إلى أفكار ميتة، وتؤدي إلى تدهور الحضارة أو ركودها. ويرى مالك بن نبي أن الحفاظ على حياة الأفكار وإحيائها ضروري لضمان استمرارية الحضارة وتطورها، وأن الأفكار الميتة، أو التي فقدت قدرتها على التأثير، تمثل عقبة أمام النهضة الحضارية (Benlahcene., 2023)

والمجتمع الإسلامي بالتحديد في هذه اللحظة، في مواجهة المشكلة في وجهيها، إنه يعاني من انتقام النماذج المثالية لعالمه الثقافي الخاص به من ناحية، ومن ناحية أخرى لانتقام رهيب تصبه الأفكار التي استعارها من أوروبا، دون أن يراعي الشروط التي تحفظ قيمتها الاجتماعية، وقد أورت ذلك تدهورا في قيمة الأفكار الموروثة وتدهورا في قيمة الأفكار المكتسبة، وقد حملا أفدح الضرر في نمو العالم الإسلامي أخلاقيا وماديا وقصور في مختلف الأنشطة الاجتماعية. فمن ناحية، فإن الأفكار التي أثبتت فعاليتها في بناء الحضارة الإسلامية منذ ألف عام تبدو اليوم عديمة الفعالية؛ لقد فقدت التصاقها بالواقع (بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، 1992، الصفحات 153-159).

إن هذا التشخيص الدقيق لانتقام الأفكار الميتة والمميته التي انتهجتها العالم الإسلامي دون نقد أو مراجعة أو تحديد في ظل غياب منهج التحليل النقدي وسيطرة منهج الانبهار والتقديس هي المسؤولة عن استمرار أزمة ومأساة العالم الإسلام في المرور إلى النهضة وتحقيق الإقلاع الحضاري المنشود.

خاتمة:

إن قوة وصلابة العلاقة بين عالم الأفكار ومشكلة النهضة والحضارة في العالم الإسلامي تمثل بحق إحدى الحلقات المعرفية والمفاهيمية الرئيسية التي ارتكز عليها فكر المفكر الإسلامي الرائد مالك بن نبي. لقد استشرّف بن نبي في بواكير تحليلاته أن مفتاح الإقلاع الحضاري المنشود، والذي يتجسد في تفاعل حيوي ومتكامل بين أركانه الثلاثة: الإنسان الفاعل، والتراب المستصلح، والزمن المستثمر، يظل مرهوناً بشكل جوهري بعملية نقدية وجراحية دقيقة لعالم الأفكار السائد في المجتمعات الإسلامية.

فلكي يتمكن العالم الإسلامي من استعادة دوره الرسالي والإنساني والحضاري، وهو الدور الذي تمليه عليه قيمه ومبادئه، يصبح من الضروري بمكان الشروع في مراجعة جذرية لهذا العالم الفكري. هذه المراجعة لا تقتصر على مجرد استعراض أو تصنيف للأفكار، بل تتعداه إلى عملية تصفية حقيقية. إنها تستلزم غريلة دقيقة لإقصاء الأفكار الميتة التي تجاوزها الزمن وأصبحت عائقاً أمام التقدم، والأفكار الميتة التي تبث اليأس والإحباط وتعيق أي محاولة للتغيير الإيجابي، والأفكار المخدولة التي لم تجد البيئة المناسبة للنمو والتطبيق أو التي قوبلت بالإهمال والتجاهل.

إن مالك بن نبي لم يكن ينظر إلى هذه العملية الفكرية على أنها مجرد ترف فكري أو نقاش أكاديمي، بل كان يراها معركة حقيقية، وصراعاً فكرياً عنيفاً لا مفر منه. هذا الصراع يمثل المرحلة الانتقالية الحاسمة، والجسر الضروري الذي يجب عبوره للوصول إلى نقلة فكرية ومعرفية حقيقية. هذه النقطة هي وحدها القادرة على إعادة الاعتبار للأفكار الأصيلة والفاعلة، تلك الأفكار التي تنبثق من صميم الواقع وتلامس احتياجات المجتمع وتستشرف آفاق المستقبل.

إن إهمال هذه المعركة الفكرية أو التقليل من شأنها يعني استمرار حالة الجمود الحضاري والتخلف. فالأفكار البالية والمشوهة تعمل كالأغلال التي تكبل العقول وتعيق حركة المجتمع نحو التقدم والازدهار. وعلى النقيض من ذلك، فإن إطلاق العنان للأفكار الخلاقة والمبتكرة، وتوفير البيئة الحاضنة لها، يمثل الوقود الحقيقي الذي يدفع عجلة النهضة إلى الأمام.

حينئذ، وعندما يتمكن العالم الإسلامي من خوض هذا الصراع الفكري بوعي وعزيمة، وتطهير فضائه الفكري من الشوائب والمعوقات، وإعادة بناء منظومته الفكرية على أسس متينة من الأصالة والمعاصرة، حينئذ فقط يمكن القول بأنه قد وضع أولى خطواته الصلبة والصحيحة على سلم الإقلاع الحضاري. إنها بداية رحلة طويلة وشاقة، ولكنها ضرورية وحتمية لاستعادة مكانة العالم الإسلامي ودوره الفاعل في بناء مستقبل أفضل للإنسانية جمعاء. إنها دعوة إلى صحوة فكرية شاملة، وإلى إدراك أن نهضة الأمم تبدأ من تحديد أفكارها وتحرير عقولها.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- احسن برامة (2018). دور الفكرة الدينية في بناء الحضارة عند مالك بن نبي. المعيار، 22(1)، 227-241.
- عبد اللطيف عبادة. (د.ت.). صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي. الجزائر: عالم الأفكار.
- عبد الرحمان ابن خلدون (1984). تاريخ ابن خلدون. بيروت: دار القلم.
- عمر بن عيسى. (2007). مالك بن نبي في تاريخ الفكر الإسلامي وفي مستقبل المجتمع الإسلامي. سوريا.
- عمر كامل مسقاوي. (1979). نظرات في الفكر الإسلامي ومالك بن نبي. دمشق: دار الفكر.
- مالك بن نبي. (1986). ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية. الجزائر.
- مالك بن نبي. (1987). شروط النهضة (الإصدار 4). (عمر كامل مسقاوي، و عبد الصبور شاهين، المترجمون) الجزائر: دار الفكر.
- مالك بن نبي. (1988). الصراع الفكري في البلاد المستعمرة. الجزائر: دار الفكر.
- مالك بن نبي. (1992). مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. الجزائر: دار الفكر.

- نبيل ضو، و المكي دراجي. (2023). تأثر مالك بن نبي بآين خلدون: في نقد القول بخلدونية مالك بن نبي. *المجلة الدولية لبحوث القانونية والسياسية*، 7(3)، الصفحات 180-206
- نور الدين بوكروح. (2016). جوهر فكر مالك بن نبي (المجلد 1).

Références :

- Al-Qur'an Al-Karim
- Abd al-Rahman Ibn Khaldun (1984). *Tarikh Ibn Khaldun*. Beirut: Dar al-Qalam.
- Abd al-Laṭīf 'Abada. (s.d.). *Ṣafaḥāt Muṣhriqa min Fikr Mālik bin Nabī. al-Jazā'ir: 'Ālam al-Afkār*
- Ahcene Barama (2018). Dawr al-Fikra al-Diniyya fi Bina' al-Hadara 'ind Malik Bennabi. *Al-Mi'yar*, 22(1), 227-241.
- Badrane Benlahcene. (2023). Civilizing Role of the "Religious Idea" in Malek Bennabi's Thought . *Journal of Islamic Thought and Civilization (JITC)*. 13 (1).
- Haroun Rachid Benmoussa .(2023) .The Islamic Framework In The Thought Of Malik Ibn Nabi .*Elementary Education Online*. 22 (4). 271-293.
- Omar Ben Aissa (2007). *Malik Bennabi fi Tarikh al-Fikr al-Islami wa fi Mustaqbal al-Mujtama' al-Islami*. Suriya.
- Omar Kamel Mesqawi (1979). *Nazarat fi al-Fikr al-Islami wa Malik Bennabi*. Dimashq: Dar al-Fikr.
- Malik Bennabi (1986). *Milad Mujtama' Shabakat al-'Alaqat al-Ijtima'iyya*. Al-Jaza'ir.
- Malik Bennabi (1987). *Shurut al-Nahda (al-Isdar 4)*. (Omar Kamel Mesqawi & Abd al-Sabour Shahin, Trans.). Al-Jaza'ir: Dar al-Fikr.
- Malik Bennabi (1988). *Al-Sira' al-Fikri fi al-Bilad al-Musta'mara*. Al-Jaza'ir: Dar al-Fikr.
- Malik Bennabi (1992). *Mushkilat al-Afkar fi al-'Alam al-Islami*. Al-Jaza'ir: Dar al-Fikr.
- Nabīl Ḍaww, al-Makkī Darrājī. (2023). Ta'attur Mālik bin Nabī bi-Ibn Khaldūn: Fī Naqd al-Qawl bi-Khaldūniyyat Mālik bin Nabī. *al-Majalla al-Dawliyya li-Buḥūth al-Qānūniyya wa al-Siyāsiyya*, 7(3), 180-206.
- Nour Eddine Boukrouh (2016). *Jawhar Fikr Malik Bennabi (Vol. 1)*.
- Arnold Toynbee. (1961-1934) .*A Study of History* .Oxford University Press.
- Karl Marx, Friedrich Engels .(1846) .*The German Ideolog* .